طريق السماء..

والمعانى الجميلة

إنها ترنيمة فى محبة السلام.. والإخوة والاستشهاد.

المبدع موقف.. وحينما يكون المبدع صاحب موقف، ينبع إبداعه من العالم والخيال والجمال، وكل القيم الجمالية هى طريق الإبداع.

إذا كان المبدع شاعرًا مرهفًا، وكاتبًا رؤيويًّا، فإنه لا بد أن ينظر إلى العالم من حوله برؤيته الثاقبة الجمالية الداعية إلى الحب والسلام والإخاء.

مريم توفيق عرفتها شاعرة تبحث دومًا عن الجمال، فى الكون، فى الروح، فى البشر.. ننزعج من هول ما حدث.. نفيق كلنا على كارثة أن يفقد الإنسان إنسانيته. ساعتها لا يبقى إلا دمار النفس، وإزهاق أرواح الأبرياء، بدعاوى كاذبة مهترئة، لا تصمد أمام ما تسطره المبدعة.

مريم توفيق تسطر لنا "طريق السماء"، كم هو رائع هذا العنوان: "رحلوا من ديارهم بحثًا عن طريق العيش الكريم.. الحياة حتى فى الغربة، ومعاناة البعد عن الأهل والوطن.

وجوه شاهدناها معًا.. هذا أخى، وهذا ابن عمى، وهذا ابن أختى، وهذا ابن خالى، وابن خالتى.. ماذا نفعل غير جريان الدموع، وشهقات النفس الملتاعة على إزهاق الأرواح البريئة الطاهرة..

لكن كانت تصبرنا السكينة والطمأنينة والنظرات الواثقة والقلوب العامرة بالإيمان، إنهم إلى الله ذاهبون، إنهم ينعمون بالشهادة مع القديسين بجوار الله.

ما أروعهم!

هذه الدقائق صورتها يد الشر، وبثتها لإرهابنا، ومن قبل حاولت إرهاب الشهداء، إلا أننا صممنا على ألا تذهب هذه الأرواح هباءً.

الكلمة خالدة.. ومن يكون موضوع الكلمة فهو خالد، وها نحن فى حضرة هؤلاء الشهداء مع لحظاتهم؛ التي اقتنصتها مريم توفيق فى براعة، كتبتها بالشعر والمذكرات والحوارات الدرامية والمشاهد السينمائية والاعترافات.

طريق السماء..

نحن مع الذين ربحوا الأبدية، والأبدية ليست بالشيء الهين.. مع القديسين يكون الحوار المضيء، يتجاذب أطراف الحديث مع أم النور، وأبينا عبد المسيح المناهرى.. هنا ترانيم وتسابيح وصلوات تقام..

قد خصنى الله بإكليل، ولم يدر يومًا بخلدى أننى أجلس إلى جوار" مارمينا" وحبيبه "البابا كيرلس" .

يذكرنى كتاب" طريق السماء" بلقطة فى فيلم" مملكة السماء"، الذى قدمته السينما الأمريكية عام 2006، كحلقة أخيرة فى سلسلة أفلام تناولت الحروب الصليبية، من إخراج المخرج البريطانى ريدلى سكوت، وكتب قصته الأمريكى وليام واياهان، وشارك فى بطولته

أورلندوبلوم، وديفيد ثيولس، وناتالى كوكس، والممثل المصرى خالد النبوى، والفنان السورى غسان مسعود الذى قدم شخصية "صلاح الدين".

لعل أهمية هذا الفيلم – فى تقدير المشاهد العربى – أنه تناول شخصية البطل الأسطورى صلاح الدين، بينما الفيلم يصور حلقة من حلقات الصراع الصليبي مع العرب فى القرون الوسطى. ميزة الفيلم إنه اقترب من الحقيقة، نقول اقترب، حيث كشف البواعث الحقيقية لهذه الغزوات، فهى لم تكن – أبدًا – صراعًا دينيًا، بل هى استعمار استغل خيرات الآخرين، وهذا ما جعل الكثير من كتاب الغرب يهاجمون الفيلم!

ثمة لقطة معبرة، تلخص حقيقة راسخة، حينما يلتقط البطل صلاح الدين الصليب من على الأرض فى إحدى الكنائس، ويضعه فوق الطاولة، تبجيلًا وتقديرًا للدين المسيحى، وإشارة ذكية إلى أن المسلمين لم يكونوا أبدًا ضد الديانة المسيحية أو المسيحيين، وأنهم يتمتعون بحرية العبادة، كما جاء فى القرآن الكريم، وكما ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة، وأن المدن العربية مفتوحة للجميع عكس ما صوره الفيلم بالنسبة للصليبين، الذين أعملوا القتل فى المسلمين سكان مدينة القدس، حينما حاصرها صلاح الدين وجنوده.

ماذا حدث؟

طريق السماء كتاب وثقت فيه مريم توفيق إدانة الفكر الإرهابى الداعشى المتعصب أينما كان.

هـى مثلنـا جميعًـا شـاهدت تلـك اللقطـات الرهيبـة التـى أزاغـت أبصـارنا، وجعلتنـا نكتم أنفاسنا، كيف يحدث هذا؟ هل يحدث هذا لأولادنـا ولمـاذا؟ هل مـا نـراه حقيقـة أو كابوسًـا؟ هل هو فيلم رعب، وظفت فيه إمكانيات فنية وتقنية هائلة ومتطورة، كى يقنعنا أن ما يحدث حقيقى، ليصرخ ما بداخلنا: نعم، نعم، إن ما نراه حقيقى.. الشباب يذبح وتسيل الدماء، ويصير البحر الأبيض أحمر، تختلط الجغرافيا بالتاريخ.

يا إلهى، كم قاسى الإنسان من أخيه الإنسان؟

" الأحمر نراه فى النار تحت الرماد، فوق الرماد، حين تضرم بأجساد الأبرياء، وهناك الأحمر القانى حيث الأحد" الدامى يوم شق فيه عنق رسم الصليب برأسه فى الهواء على خطى " مارمينا"، و" وأبى سيفين"، و" أبانوب" والبطل، والموج خلف الموج يعب من دم الولد صارخاً: كفوا عن خراب الديار.

كما سبق القول، فإن "طريق السماء" نص عابر للنوع الأدبى، يمثل تفاعل الأنواع الأدبية والفنية بامتياز، فهو يضم قصيدة للشهيد:

يا حبيبى.. لا تكتئب، لا تنفعل وغض الطرف عن
طابور كان على مرمى البصر.
لا تخف من جحافل اليأس تشغل الكون، فتصرخ
النوارس بأنات مغترب
لا تنزعج من وجوه طغت بالقهر والكذب
الجبان من تخفى ليمزق الطير على أفنان الشجر

من حرق السنابل وكرمة العنب.

نحو الصلاة انطلق نحو السحاب، نحو الشهب

ولى الألم وانفلات الجرح صوب المطر، من أجل السماء احتمل

وأظفر بالمسيح حبيبنا يناديك فى زمان القهر، واللهيب المستعر

من الدم المراق يولد الألق

لن تساوم فى المنافى.. لن تهادن

الشاعرة تصور ثبات نفس الشهيد، وتؤكد أن العالم أصبح مرتعًا للقهر والإرهاب، الفاقد للإنسانية الباغى على كل مظاهر الرقى والحضارة، تثمن الشاعرة الشهادة، أليس المسيح، شهيدًا افتدى بدمه الإنسانية، لقد ربح الشهيد الدنيا والآخرة، بينما خسر المعتدى الداعشى الإرهابى، دنياه ودينه وآخرته!.

نحن فى عصر الزيف.

إن الحقد وراء هذه الجرائم، فقد الأعداء إنسانيتهم، وملأ الكره نفوسهم، فعميت بصيرتهم عن معرفة الحقيقة، جروا وراء أوهام نصرة الدين، والدين والرسول منهم، ومن فعلهم براء.

لماذا كتبت الشاعرة مريم توفيق هذه الترنيمة" أنجم الليل أطفئت، وقلبى صار بركانًا من الجمر، فكيف تطيب لى الأفراح؟"

هذه المناجاة الأسيانة تنعكس على المشهد ككل، لهذا تبدأ رحلتها بنيل البركة وزيارة المطرانية، لتقدم عطية الرب، ماذا تقدم الشاعرة للرب إلا ما وهبه لها، قصيدة مطبوعة بالحجم الكبير، حتى يتمكن شعب الكنيسة من قراءتها.

تتخذ الكاتبة من المشهد السينمائى وسيلة ناجحة لتصوير لقاءاتها مع أسر الشهداء، فتبدأ بزيارة منزل الشهيد "بشرى نصيف".

أشار سكان البلدة نحو بيت الشهيد "عزت بشرى نصيف، فتسجل بالعدسة الحركة والصوت، ونقل المشاعر الأولى للقاء أم الشهيد" فترجلت، وكأن قدمى أبتا ألا تسعفانى" فأنهى المهمة الصعبة، أقدم خطوة وأتراجع خطوات"... إلخ.

ثمة تكرار لاستخدام تقنية الكلوز آب، بؤرة العدسة تركز على أم الشهيد فتحتل المشهد كاملًا، حيث تصور هيئة الأم، وترسم ملامحها الجسدية والنفسية، ثم تبدأ الشاعرة بالحوار معها بعد أن تهيئ القارئ، لتلقى الرسالة وأثرها.

"أم الشهيد، فأشاروا نحوها، ووجدتنى أرتمى بأحضانها، أقبل يديها ورأسها، فبكت السيدات من فرط التأثر. لم أكن أدرى أن البركان بداخلى يغلى، هكذا تعقب الكاتبة على المشهد الذى سيتكرر مع أسر الشهداء، حولت الكاتبة تلك الزيارات والمقابلات والحوارات والانطباعات إلى تكوينات فنية، تثير فى نفس المتلقى، معاناة وألمًا ومزيدًا من الكره لهذا الفعل الإجرامى من إرهابيى العصر، وتثير فى النفس أسئلة: كيف يسكت العالم أمام هذه الجرائم ضد الإنسانية؟ كيف حدث ذلك؟ أين الضمير الإنسانى؟ كيف ستعيش هذه الطفلة التى حرمت من حنان أبيها؟ هل عرف هؤلاء البرابرة أنهم حينما قتلوا والدها، قتلوا البهجة والفرحة فى روحها؟" لم يعد من يختبئ خلف الباب لنبحث عنه فى لعبة (الاستغماية) ونحن ما بين توتة وجميزة،

نقسم أنفسنا فريقين، لم يعد فرح فى العيدين.. من يلون بيض شم النسيم؟ من يصنع فى الغطاس من البرتقال الفوانيس؟ من يدفئنا إذا حل الصقيع؟

الكتابة هنا صارت وثيقة للتاريخ، لم تقتصر على تثبيت المشهد المأساوى، لكنها أكدت على دراميته، وردود أفعاله. لأول مرة نسمع صوت هؤلاء البسطاء، نعرف رحلة الشقاء التى عاشوها سواء فى موطنهم مصر أم فى الغربة. هم نموذج لآلاف من الشباب الباحثين عن لقمة العيش الشريف، لا يبحثون عن حياة رفاهية، فقط العيش الكريم.

لماذا استكثر عليهم الإرهاب الأسود تحقيق هذا الحلم البسيط؟..

قد يعلو صوت الكاتبة قليلًا، فتصبح معلقة على الحدث ككاتبة، وليس فى هذا عيب، فالكاتبة منذ الوهلة الأولى كسرت الخط الحاجز بين الراوى العليم بكل شيء والكاتب، وتماهى كل فى الآخر.

إذا كان " طريق السماء" – كما قال الناقد د. محمد حسن عبد الله فى مقدمته للكتاب – يصعب توصيفه بالمصطلحات، إلا أن العنوان لا يخلو من دلالة إضافة، إلى العنوان الذى جاء فى هيئة لقطة من شريط فيلم يقترب تمامًا من الوسيلة التى بث بها الإرهاب صورة ما جرى. حاولوا – عبر أشهر – تقديم فيلم وثائقى يسوق للإرهاب، بالفزع والخوف فى النفوس، ليصير أيقونة يعتز بها الذين يتبعون الشيطان، قبلها قدموا فيلم حرق الطيار الأردنى أكثم الكساسبة،

إخراج طاقم من الفنيين المهرة فى مجال السينما، لكن الكلمة هى سلاح المتحضرين والمؤمنين بكلمة الله وقضائه.

يذكرنى غلاف الكتاب بغلاف فيلم "كتيبة الإعدام"، جاء الأفيش عبارة عن مجموعة من أبطال الفيلم يحملون أسلحة آلية، شرعت فى وجه المتفرج بينما جاءت الخلفية بلون الدماء.

العجيب أن المدجج بالسلاح مفتول العضلات، ولابسي القمصان الواقية من الرصاص يخفون وجوههم، ما هذا الذعر؟ ممن يخافون؟! من هؤلاء المستسلمون والراضون بقضاء الله، الخائفون من تلك الأدعية والتسابيح والترانيم؟ ومن أين أتوا بهذا الثبات أمام الطاغوت؟

فى لحظات كان يمكن النجاة بأعمارهم، لكن ثبات الإيمان دفعهم إلى السير فى طريق الحق، حاربوا الإرهاب، واجهوا القتل وعدم احترام حرية العقيدة، ظفروا بالشهادة.

الكاتبة توسع من نصها بإجراء حوارات مع أسر الشهداء. وعلى الرغم من أن الموضوع واحد، والأسى ينتقل من أسرة إلى أخرى، فإن الكاتبة تغير بؤرة الاهتمام، وتقدم ترجمة سيرية لشخصيات، لكل منها همومها ومشكلاتها وطموحاتها، عبر استعادة أصواتهم، وحوارات مع أم الشهيد وابنته وزوجته وحبيبته وجيرانه، تضاف تفاصيل التفاصيل، ونتلمس مواقف إنسانية، نقف على لحظات حاسمة فى حياتهم، أهمها، وأعمقها لحظة الوداع، وداع الأهل والوطن، يا لها من لحظة درامية مشحونة بالوجع والمرارة والألم، نشارك أسر الضحايا مصابهم وألمهم، لا تكتفى مريم توفيق بذلك بل تقدم لنا العالم المحيط بهذه

الأسر المفجوعة فى أبنائها، كيف يعيشون؟ تكشف لنا الكاتبة أن هناك تراخ من البعض، فالبعض مشغول بما يخصه. ثمة الشعارات المتناثرة هنا وهناك، وربما حاول البعض استثمار هذا الوجع لصالحه!

إذا كان هم الكاتبة – كما يبدو من الوهلة الأولى – تخليد هؤلاء الشهداء، فإنها فى الوقت ذاته، قدمت "بروفيلاً نفسياً" لداعشى العصر، هؤلاء الذين يمثلون الهمجية والبربرية، ترسم لوحات تبين سقوط إنسانيتهم، وتعطشهم لإسالة الدماء، لبث الرعب فى قلوب المؤمنين، ودعواهم الزائفة بأنهم ينصرون الدين، ويطبقون الشريعة، ويعلون كلمة الله، والحقيقة أنهم يسيطرون على الممتلكات، وينهبون البلاد، ويقطعون رقاب المؤمنين.

تحت عنوان "صورتان وشيطان واحد" تذهب الكاتبة إلى أن الداعشيين هم الشيطان.. يتباهون بتكنولوجيا المعلومات التى يوظفونها لأغراضهم الشريرة..

شيطان اليوم ينجب الزيف والدجل.. شيطان اليوم تفوق على ذاته، دستوره البطش والسيف المسموم، يقتحم المعاقل والحصون، لص فى زمن النخاسة، يبيع العرض فى المزاد بالبخس، يستحل دم البشر، يتاجر بالوطن على الشاشات.

تقدم مريم توفيق وثيقة فنية مضفورة برؤية إيمانية عميقة، متغلغلة فى نفس الإنسان المصرى؛ الذى عرف الضمير والدين، وقدم للعالم أقدم الحضارات.

رغم صغر حجم الكتاب فإنه غنى بثرائه، حينما نلتقط الجهد الكبير المبذول فى تقديم ثقافة الإنسان المصرى سواء كان مسلمًا أم قبطيًا، معتقداته وطقوسه وعاداته وأفراحه. هذه الثقافة الأم التى تضم المصريين، وتجعلهم لحمة واحدة.

كل كتاب ألفنا أن يُقْرأ من بدايته، من صفحاته الأولى، أما طريق السماء فقد آثرت مريم توفيق أن نقرأه من الخاتمة.

تحت عنوان "يا مصر" تقول الشاعرة مريم توفيق: "يا مصر.. بين ربوعك وجه الله، يا وطن يعانق الضياء، إذا انطفأ الرجاء والضعفاء فى الزمن المدنس بالخزى يصرخون: أين نبع الماء؟ يا واحة الحب فى محرابك دعوة تلملم شتات النخيل بعدما ولت النوارس فى كل واد، تسأل لماذا تباع الأوطان بالثمن الهزيل؟!

كلمات لمواطنة مصرية، أحبت وطنها، ووجدت فى الحدث المأساوى الهائل ما حرك مشاعرها، فرنت – مثل كل محبى المعشوقة، وأخلصوا فى حبها – إلى طريق السماء.